الدّار

بقلم: عبد المجيد برزاني

كانت تتفرّس صفحة إشهاريّة لجريدة. علتْ وجهَها ابتسامة عريضة عندما دخلتُ الشّقّة وأسرعتْ نحوي: انظرْ حبيبي، تجزئة في غاية الرّوعة.. بقع أرضيّة من مئة متر.. منطقة خضراء للعب الأطفال.. طابقان ومرآب للسيارة و..و...و....هه، مارأيك حبيبي؟

وكنت كلّما سمعت كلمة "حبيبي"، اعترتْني حالةُ استنفار وتأهّب لمصيبة ما، أوعلى الأقلّ، لضائقة ماليّة قد تطول بضعة أشهر.

– وما شأني أنا ؟ ما أهميّة رأيي؟ أريد ماء دافئا لأصلّي المغرب.

– وبعد الصّلاة، المقهى والجرائد.. ثمّ النّوم. وفي الصّباح العمل ثمّ المقهى فالنوم.. أصبحت تخنقنا هذه الرّتابة .

ابتدأتْ.. هذه المقدّمة أعرفها جيّدا، تبشّر دائما بقرب حلول معركة سجاليّة، سرعان ما يأخذ فيها الأطفال صفّ أمّهم، ولن تنفعني معهم لا دروس الوعظ والإرشاد، ولا التّرغيب والنّرفزة

obeikandl.com

والتّهديد، ولا أيّ شيء سوى أن أنصاع وأُلمُّ الموضوع، قبل تدخّل أطراف أخرى (حماتي مثلا) تزيدُ الطينَ بلّة، وتُشعِّب الخلافَ.. وقد ينتهي بما لا تحمد عقباي...هكذا علّمتني تجربة عشرين سنة أن أتخطى كلّ صداع الرأس هذا، وأذهب مباشرة إلى المفيد:

– ماذا تريدين الآن يا امرأة ؟

– نشتري بقعة أرضيّة في هذه التّجزئة.

– نشتري بُقْ...؟ من أين لي بثمنها؟

– نبيع هذه الشّقّة المقرفة.

– نبيع الشّقّة؟ ونسكن على بقعة أرضيّة عارية؟

– ألْلاَّ.. نبني عليها كما يفعل جميع الخلق.

– ومن أين؟ إذا كان ثمن الشّقّة بالكاد يساوي ثمن البقعة.

– اقترض من البنك .

– البنك؟ أنا لم أنته بعد من تسديد أقساط السّيّارة.

– زد قرضا آخر.

– ولمَ كلّ هذا العناء والشّقّة واسعة، تسعنا كلّنا مهما كان عدد الضيوف؟..

obeikandl.com

– أريد دارا...الدّار هي التي ستفقأ لي عين جارتي خديجة.

– ولماذا دار؟ مفكّ براغ، مثقاب كهربائي، أيّ شيء حادّ يفقأ لك عيون جميع نساء الحيّ.

– الدا..الدّار...

– سنعيش في ضنك قد لايتحمّله الأولاد...

– الدّار.

– التّجزئات تكون بعيدة عن المدارس والمستوصفات والمرافق العموميّة..

– الدّار

– سنفتقد الأصدقاء والأصحاب، ونبتعد عن بيت أهلك وأمّك العزيزة.

– العزيزة؟ ...الدّار.

لا جدوى، هي الدّار...والدّار وما أدراك ما الدّار!...فقد دخلتُ دوامة السّماسرة والبنوك، والموثّقين، والمهندسين والإدارات..

مكتب يسلّمني لمكتب.. وثيقة تسلّمني لوثيقة، حتّى أصبحت التّصاميم والوثائق الإداريّة في محفظتي أكثر من المصوغات التربويّة

obeikandl.com

والكرّاسات...جاءت بعدها دوّامة البناء والنّجار والحدّاد والصبّاغ.. ولكلٍّ مقامه ومقاله...لا بدّ أن ألقي على كلّ واحد منهم درسا في العفّة والأمانة، ومحاربة الغشّ، وهي دروس لا محالة فاشلة. لا كفايات نفعتْ فيها ولا إدماج؛ لأنّ الأمر كان دائما يستلزم منّي الحضور باكرا، والمراقبة العينيّة طوال النّهار، والحساب... أدمنت الضّرب والجمع والطّرح والقسمة والتّحويل، أحسب في الدّار، وأحسب في المقهى، وأحسب في القسم ، حيثما رحلت وارتحلت أحسب..

تعبتُ كثيرا، تعبت كثيرا.. لكنّي بنيتُها، رغم أني بعتُ السّيّارة وفقدتُ الشّعيرات التي كانت تستر على رأسي ما عاثه الزّمن، ورغم أنّني استفقت ذات صباح على صوت الطّبيب يخبرني أنّ ضغط دمي جدّ مرتفع، وعليّ إجراء تحاليل داء السّكري. ورغم صدق حدس الطّبيب، ورغم تقارير السّيد المفتّش وشماتة الزّملاء.. إلّا أنّني بنيتُها، بنيتها وحقّقت على الواقع ما كان في مخيّلة زوجتي وأمّها من تصاميم غريبة للمطبخ وللحمّام والشّرفات

و..و...و ...

ولأنّي بنيتُها، وفقط لأنّي بنيتها، عليّ الافتخار بقدراتي وجلدي وصبري وتحمّلي..

هذا الصّباح، وأنا أتلذّذ بأشعّة الشّمس في الشّرفة، عادت ابنتي من كليّتها متأبّطة جريدة فتحتْها أمامي:

– انظر، بابا.. تجزئة بقع أرضيّة للفيلات بعيدة عن تلوّث المدينة، وتطلّ على البحر، كما أنّها .. بابا !؟ بابا ما لك ؟ بابا، بابا.. ماما..ماما بسرعة ماما...

obeikandl.com